إذن : بسبب ظلمهم وأخذهم غير حقهم حرَّم الله عليهم أشياء كانت حلالاً لهم ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ظلموا أنفسهم بأن أعطوا لأنفسهم متاعاً قليلاً عاجلاً ، وحرموها من المتعة الحقيقية الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعطى عبده فرصة ، ويفتح له باب التوبة والرجاء ، فمن رحمته سبحانه بعباده أنْ شرع لهم التوبة من الذنوب ، ومن رحمته أيضاً أن يقبلها منهم فيتوب عليهم . ولو أغلق باب التوبة لَتحوَّل المذنب - ولو لمرة واحدة - إلى مجرم يُعربد فى المجتمع ، وبفتح باب التوبة يقى الله المجتمع من هذه العربدة .

ويبين الرسول ﷺ مكانة التوبة فيقول :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة[1] فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ

---

(١) الفلاة : الصحراء الواسعة التى لا ماء بها ولا أنيس ، فهى أرض قفر لأنها فُليت عن كل خير . [لسان العرب - مادة : فلا]

هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها[1] ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح »[2]

وقوله تعالى فى بداية الآية : ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على كثرة ما تقدم من ذنوب ، ومع ذلك غفرها الله لهم ليُبيِّن لك البَوْن الشاسع بين رحمة الله وإصرار العُصَاة على الكفران بالله ، وعلى المعصية .

وقوله تعالى : ﴿بِجَهَالَةٍ﴾

أى : بطيش وحُمْق وسَفَه ، وجميعها داخلة فى الجهل بمعنى أنْ تعتقد شيئاً وهو غير واقع ، فالجهل هنا ليسَ المراد منه عدم العلم ، إنما الجاهل مَنْ كانت لديه قضية مخالفة للواقع وهو متمسك بها ، والمراد أن ينظر إلى خير عاجل فى نظره ، ويترك خيراً آجلاً فى نظر الشرع .

وقد ورد هذا المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ (١٧)﴾ [النساء]

بجهالة : يعنى فى لحظة سَفَه وطيْش ، فالعاصى يعلم الحكم تماماً ، ولكنه فى غفلة عنه ، وعدم تبصُّر بالعواقب ، ولو فكَّر فى عاقبة أمره ما تجرَّأ على المعصية .

لذلك نقول : إن صاحب المعصية لا يُقدِم عليها إلا فى غيبة العقل .

(١) الخطام : أن يأخذ حبلاً من ليف أو شعر أو كتان ، فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ، ثم يقلد البعير ثم يُثنَّى على مُخطَّمه . [اللسان - مادة : خطم] .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

ولذلك قال ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يـزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السـارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[١]

ولو استحـضر قسوة الجزاء لما أقـدم على معصيته ، ولكن سـفهه وطيْشه يُغلّف الجـزاء ويستره عنه ويُزيّن له ما ينتظره من لذة ومـتعة عاجلة .

وهَبْ أن شخـصاً الحتْ عليـه غريزة الجنس ، وهى أشـرس الغرائز فى الإنسـان ، فـفكّر فى الفاحشـة والعياذ بـالله ، وقبل أنْ يقع فى هذه الوهدة السحيقة أخذناه إلى موقد النار ، وذكّرناه بما غفل عنه من جزاء وعقوبة هذه الجريمة.

بالله عليك ، ماذا تراه يفعل ؟ هل يُصِرّ على جـريمته ؟ لا ، لأنه كان ذاهلاً غافلاً ، وبمجرد أن تذكره يرجع .

إذن: طيشـه وسفـهه صـرفه عن التفكـر فى العاقبـة وأذهله عن ردّ الفعل ، وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجِّلة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا .. (١١٩) ﴾ [النحل]

والتـوبة هنا هى التوبـة النصوح الصـادقة ، الـتى ينوى صاحـبهـا الإقـلاع عنها وعـدم العَوْد إليـهـا مرة أخـرى ، ويعزم على ذلك حـال توبته ، فإذا فعل ذلك قَبِل الله منه وتاب عليه .

ولا يمنع ذلك أن يعـود للذنب مـرة أخـرى إذا ضـعُفَتْ نفسـه عن المقـاومة ، فـإنْ عاد عـاد إلى التوبة من جـديد ، لأن الله سبحـانه من

(١) أخرجه مسلم فى صحيحـه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) .

أسمائه ﴿ التواب ﴾ أى : كثير التوبة ، فلم يقل: تائب بل تواب ، فلا تنقطع التوبة فى حق العبد مهما أذنب ، وعليه أنْ يُحدِث لكل ذنبٍ توبة .

بل وأكثر من ذلك ، إذا تاب العبد وأحسن التوبة ، وأتى بالأعمال الصالحة بدلاً من السيئة ، منَّ الله عليه بأن يُبدِّل سيئاته حسنات ، وهذه معاملة رب كريم غفور رحيم .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾ [النحل]

فيه إشارة لحرص النبى ﷺ علينا ، وأنه يسرُّه أن يغفر الله لنا .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد غفور رحيم ، فكأنه سبحانه يمتنُّ على نبيه ﷺ أنه سيغفر للمذنبين من أمته .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً نبيه إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾

بعد أن ذكرتْ الآيات طرفاً من سيرة اليهود ، وطرفاً من سيرة أهل مكة تعرَّضتْ لخليل الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

والسؤال : لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء ؟

ذلك لأنه أبو الأنبياء ، وله مكانته بين الأنبياء ، والجميع يتمحكون فيه ، حتى المشركون يقولون : نحن على دين إبراهيم ، والنصارى قالوا عنه : إنه نصرانى . واليهود قالوا : إنه يهودى .

فجاءت الآية الكريمة تحل شخصية إبراهيم عليه السلام، وتُوضّح مواصفاتها، وتردُّ وتُبطِل مزاعمهم فى إبراهيم عليه السلام، وهاكم مواصفاته :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً..(١٢٠)﴾ [النحل]

أُمَّة : الأمة فى معناها العام : الجماعة، وسياق الحديث هو الذى يُحدِّد عددها، فنقول مثلاً : أمة الشعراء . أى : جماعة الشعراء، وقد تكون الأمة جماعة قليلة العدد، كما فى قوله تعالى :

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ..(٢٣)﴾ [القصص]

فسمى جماعة من الرعاة أمة؛ لأنهم خرجوا لغرض واحد، وهو سَقْى دوابهم .

وتُطلَق الأمة على جنس فى مكان، كأمة الفرس، وأمة الروم، وقد تُطلق على جماعة تتبع نبياً من الأنبياء، كما قال سبحانه :

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر]

وحين نتوسَّع فى معنى الأمة نجدها فى رسالة محمد ﷺ تشمل جميع الأمم؛ لأنه أُرسل للناس كافّة، وجمع الأمم فى أمة واحدة، كما قال تعالى :

﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (٩٢)﴾ [الأنبياء]

ومعنى أمة واحدة . أى : جامعة لكل الأمم .

فـالمعنى ـ إذن ـ أن إبراهيم ـ علـيه السـلام ـ يقوم مـقام أمـة كاملة ؛ لأن الـكمالات المطلقـة لله وحده ، والكمالات المـوهوبة من الله لخلْقه فى الرسل تُسمَّى كمالات بشرية موهوبة من الله .

أما مـا دون الرسل فقـد وُزِّعت عليهم هـذه الكمالات ، فـأخذ كل إنسان واحداً منهـا ، فهذا أخذ الحلم ، وهذا الشـجاعة ، وهذا الكرم ، وهكذا لا تجتمع الكمالات إلا فى الرسل .

فإذا نظرتَ إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ وجـدتَ فيه من المواهب ما لا يُوجد إلا فى أمة كاملة .

كذلك رسولنا مـحمد ﷺ حينما حَدَّد موقـعه بين رسالات الله فى الأرض يقول :

« الخير فىَّ ـ وهذا هو الكمال البشرى الذى أعطاه الله إياه ـ وفى أمتى »[1] .

أى : أن كل واحـد منهم أخـذ جـزءًا من هذا الكمـال ، فكأن كماله ﷺ مُبعثر فى أمته كلها .

لذلك حـين تتتـبع تاريخ إبراهيم ـ عليـه السـلام ـ فى كتـاب الله تعالى تجد كل مـوقف من مواقفه يعطيك خَصْـلة من خـصال الخير ، وصفة من صفات الكمال ، فإذا جـمعتَ هذه الصفات وجدتها لا توجد إلا فى أمة بأسْرها ، فهو إمام وقدوة جامعة لكل خصال الخير .

---

(١) قال ابن حجـر العسقلانى : لا أعرفـه ، ولكن معناه صحيح . ذكـره القارى فى « الأسرار المرفـوعة » (٤٥٧) وكذا السيـوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) ، والعـجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

ومن معانى أمة : أنه عليه السلام يقوم مقام أمة فى عبادة الله وطاعته .

وقوله : ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : خاشعاً خاضعاً لله تعالى فى عبادته .

﴿حَنِيفًا (١٢٠)﴾ [النحل]

الحنف فى الأصل : المَيْل ، وقد جاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ والكون على فساد واعوجاج فى تكوين القيم ، فمال إبراهيم عن هذا الاعوجاج ، وحَاد عن هذا الفساد .

والحق سبحانه وتعالى لا يبعث الرسل إلا إذا طَمَّ الفساد ، إذن : مَيْله عن الاعوجاج والفساد ، فمعناه أنه كان مستقيماً معتدلاً على الدين الحق ، مائلا عن الاعوجاج حائدا عن الفساد .

ثم يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل]

وهذه هى الصفة الرابعة لخليل الله إبراهيم بعد أن وصفه بأنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، وجميعها تنفى عنه الشرك بالله ، فما فائدة نَفْى الشرك عنه مرة أخرى فى :

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل]

يجب أنْ نُفرِّق بين أنواع الشرك ، فمنه الشرك الأكبر ، وهو أن تجعل لله شركاء ، وهو القمة فى الشرك . ومنه الشرك الخفى ، بأن تجعل للأسباب التى خلقها دَخْل فى تكوين الأشياء .

فالآية هنا : ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل]

أى : الشرك الخفى ، فالأوصاف السابقة نفتْ عنه الشرك الأكبر ، فأراد سبحانه أن ينفى عنه شركَ الأسباب أيضاً ، وهو دقيق خفىّ .

ولذلك عندما أُلقىَ - عليه السلام - فى النار لم يلتفت إلى الأسباب وإنْ جاءت على يد جبريل - عليه السلام - ، فقال له حينما عرض عليه المساعدة : أما إليك فلا[1] . فأين الشرك الخفى - إذن - والأسباب عنده معدومة من البداية ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾

قوله تعالى : ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ (١٢١)﴾ [النحل]

فيه تلميح لأهل مكة الذين جحدوا نعمة الله وكفروها ، وكانت بلدهم آمنة مطمئنة ، فلا يليق بكم هذا الكفر والجحود ، وأنتم تدَّعُون أنكم على ملّة إبراهيم - عليه السلام - فإبراهيم لم يكن كذلك ، بل كان شاكراً لله على نعمه .

وقوله : ﴿اجْتَبَاهُ (١٢١)﴾ [النحل]

اصطفاه واختاره للنبوة ، واجتباء إبراهيم - عليه السلام - كان عن اختبار ، كما قال تعالى :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى : اختبره ببعض التكاليف ، فأتمها إبراهيم على أكمل وجه ، فقال له ربه :

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٢) فى تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء] من حديث أُبىّ بن كعب . وأن إبراهيم عليه السلام قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » .

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (١٢٤) ﴾ [البقرة]

ولكنه لحبه أن تتصل الإمامة فى ذريته قال :

﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فعدَّل الله لـه هذه الرغبة ، وصحَّح له ، بأن ذريتك سـيكون منها الظالم ، فقال :

﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لذلك تعلَّم إبراهيـم ـ عليه السـلام ـ من هذا المـوقف ، وأراد أن يحتاط لـنفسه بعد ذلك ، فـعندما أراد أن يطلب من ربه أن يرزق أهل مكة من الثمرات قال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

فـصـحَّح الله له أيضـًا هذا المطلب ، فـالموقف هنـا مخـتلف عن الأول ، الأول كان فى إمامة القـيم والدين ، وهذه لا يقوم بها ظالم ، أمـا هـذه فــرزق وعطاء ربوبيـة يشـمل المـؤمن والكافــر والطائع والعاصى ، فالجميع فى الرزق سواء ، فقال تعالى :

﴿ وَمَن كَفَرَ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

أى : سأرزق الكافر أيضاً[1] .

---

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس ، فأنزل الله (وَمَنْ كَفَرَ) أيضاً أرزقهم كمـا أرزق المؤمنين ، أأخلق خلقاً لا أرزقهم ؟ أمتـعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصيـر ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) ﴾ [الإسراء] . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٧٥) .

وهنا تتجلى عظمة الربوبية التى تُربِّى الأنبياء ، وتصنعهم على عَيْنها ، فكل مواقف الأنبياء تتجمع فى النهاية ، وتعطينا خلاصة الكمال البشرى .

ويدل على دقة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى أداء ما طُلب منه موقفه فى بناء البيت ، فبعد أن دلَّه الله على مكانه أخذ يُزيح عنه آثار السيول ، ويكشف عن قواعده ، وكان يكفى إبراهيم لتنفيذ أمر ربه أنْ يرفع البناء إلى ما تناله يده من ارتفاع ، ولكنه أحب أن يأتى بالأمر على أتمِّ وجوهه ؛ وينفذه بدقة واحتياط ، ففكَّر أن يأتى بحجر مرتفع ، ويقف عليه ليزيد من ارتفاع البناء ، فجاء بالحجر الذى هو مقام إبراهيم ، كل ذلك وولده يساعده ؛ لذلك لما أتى بالحجر جاء بحجر لا يرفعه إلا رجلان .

وكذلك موقفه الإيمانى وتخلِّيه عن الأسباب ، حينما ترك زوجه هاجر وصغيره إسماعيل فى وادٍ غير ذى زرع ، وفى مكان خالٍ من مُقوِّمات الحياة وأسباب العيش[1] .

إنه لا يؤمن بالأسباب ، إنما يؤمن بمُسبِّبها ، وطالما أنه سبحانه موجود فسوف يُوفِّر لهم من الأسباب ما يحفظ حياتهم ؛ لذلك حينما سألته هاجر : أهذا منزل أنزلكه الله أم من عندك ؟

فلما علمت أنه من الله قالت : إذن لن يُضيِّعنا . وكأن إيمان

(١) وذلك قوله تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

إبراهيم نضح على زوجته ، وملأ قلبها يقيناً فى الله تعالى .

وقوله سبحانه :

﴿ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) ﴾ [النحل]

كيف .. بعد كل هذه الأوصاف الإيمانية تقول الآيات (وَهَدَاهُ) أليست هذه كلها هداية ؟

نقول : المراد زاده هداية ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٢٢) ﴾

الحق سبحانه يُبيِّن أن جزاء إبراهيم - عليه السلام - عظيم فى الدنيا قبل جزاء الآخرة ، والمراد بحسنة الدنيا محبة جميع أهل الأديان له ، وكثرة الأنبياء فى ذريته والسيرة الطيبة والذكر الحسن .

وها نحن نتحدث عن صفاته ومناقبه ونفخر ونعتز به . وهذا العطاء من الله لإبراهيم فى الدنيا ؛ لأنه بالغ فى طاعة ربه وعبادته .

وقد طلب إبراهيم - عليه السلام - من ربه هذه المكانة ، فقال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء]

حُكْماً : أى : حكمة أضع بها الأشياء فى مواضعها .

ولسان صدق : هو الذكر الطيب والثناء الحسن بعد أن أموت .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ﴾ [النحل]

فإنْ كان هذا جزاءَه فى الدنيا ، فلا شكَّ أن جزاء الآخرة أعظم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر بعضاً من صفات الخليل إبراهيم من كونه أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ، وأنه شاكر لأنعمه ، واجتباه ربه وهداه .. إلخ قال :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (١٢٣) ﴾ [النحل]

يا محمد :

﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (١٢٣) ﴾ [النحل]

كان قمة مناقب إبراهيم وحسناته أننا أوحينا إليك يا خاتم الرسل أن تتبع ملته .

وملة إبراهيم : أى شريعة التوحيد .

ثم يُؤكِّد الحق سبحانه براءة إبراهيم من الشرك فيقول :

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ﴾

بعد أن تحدّث الحق سبحانه عن إبراهيم أبى الأنبياء ، وذكر جانباً من صفاته ومناقبه تكلّم عن بنى إسرائيل فى قضية خالفوا فيها أمر الله بعد أن طلبوها بأنفسهم ، وكأنّ القرآن يقول لهم : لقد زعمتم أن إبراهيم كان يهودياً ، فها هى صفات إبراهيم ، فماذا عن صفاتكم أنتم ؟ وأين أنتم من إبراهيم عليه السلام ؟

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً عن مخالفتهم لربهم فيما يأمر به ، وأنهم ليسوا كإبراهيم فى اتباعه ، فيذكر ما كان منهم فى أمر السبت .

و (السبت) هو يوم السبت المعروف التالى للجمعة السابق للأحد ، والسبت مأخوذ من سَبَتَ يَسْبِت سَبْتاً . يعنى : سكن واستقرّ ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) ﴾ [النبأ]

ذلك أن بنى إسرائيل طلبوا يوماً يرتاحون فيه من العمل ، ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذى أتمَّ الله فيه خَلْق

الكون فى ستة أيام ، وهو اليوم الذى اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت وقالوا :

إن الله خلق الدنيا فى ستة أيام بدأها بيوم الأحد ، وانتهى منها يوم الجمعة ، وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أن نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

أما العيسويون فرفضوا أن يتبعوا اليهود فى يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام فى يوم الجمعة ، واختاروا يوم الأحد على اعتبار أنه أول بَدْء الخلق .

أما أمة محمد ﷺ فقد اختار لها الله يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة[1] .

إذن : اليهود طلبوا يوم السبت واختاروه للراحة من العمل والتفرغ للعبادة ، فهذا مطلبهم ، وقد وافقهم ربُّهم سبحانه وتعالى عليه ، وأمرهم أنْ يتفرغوا لعبادته فى هذا اليوم ، وافقهم ليُبيِّن لجاجتهم وعنادهم ، وأنهم لن يُوفُوا بما التزموا به وإن اختاروه بأنفسهم ، ووافقهم ليقطع حجتهم ، فلو اختار لهم يوماً لاعترضوا عليه ، ولكن هاهم يختارونه بأنفسهم .

كما أن قصة السبت مع اليهود جاءت لتخدم قضية عقدية عامة ،

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٨٥٦) كتاب الجمعة من حديث أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنهما أنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة المقضىّ لهم قبل الخلائق » .

هى أن الآيات التى تأتى مُصدِّقة للرسل فى البلاغ عن الله تعالى قد تكون من عند الله وباختياره سبحانه ، وقد تكون باختيار المرسَل إليهم أنفسهم ، وقد كان من بنى إسرائيل أنْ كذَّبوا بهذه وهذه ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ (٥٩) ﴾ [الإسراء]

أى : لكونهم يقترحون الآية ثم يُكذِّبونها ، فأمْرهم تكذيب فى تكذيب .

وقصة السبت ذُكرَتْ فى مواضع كثيرة ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ[1] الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

لقد نقض اليهود عهدهم مع الله كعادتهم ، وأخلفوا ما التزموا به ، وذهبوا للصيد فى يوم السبت ، فكادهم الله وأغاظهم ، فكانت تأتيهم الحيتان والأسماك تطفو على سطح الماء كالشراع ، ولا ينتفعون منها بشىء إلا الحسرة والأسف ، فيقولون : لعلها تأتى فى الغد فيخيب الله رجاءهم :

﴿ وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

وقد سمَّى القرآن الكريم ذلك منهم اعتداءً ؛ لأنهم اعتدوا على ما شرع الله ، قال تعالى :

---

(١) اختلف المفسرون فى تحديد هذه القرية ، فقال ابن عباس : هى قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة . وقال ابن شهاب الزهرى : هى طبرية . وقال سعيد بن جبير : هى مدين . أوردها السيوطى فى الدر المنثور (٣/٥٨٧) .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى :

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ[1] .. (١٢٤)﴾ [النحل]

كلمة (اخْتَلَفُوا) تُوحي بوجود طائفتين متناقضتين في هذه القضية ، والحقيقة أن الخلاف لم يكُنْ بين اليهود بعضهم البعض ، بل بينهم وبين نبيهم الذي اختار لهم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت ، فجعل الله الخلاف عليهم .

فالمعنى : إنما جُعِل السبت حُجّة على الذين اختلفوا فيه ؛ لأنه أثبت عدوانهم على يوم العبادة ، فبعد أن اقترحوه واختاروه انقلب حُجة عليهم ، ودليلاً لإدانتهم .

ولو تأملنا قوله :

﴿عَلَى الَّذِينَ .. (١٢٤)﴾ [النحل]

نجد أن كلمة (عَلَى) تدلُّ على الفوقية أي : أن لدينا شيئاً أعلى وشيئاً أدنى ؛ فكأن السبت جاء ضد مصلحتهم ، وكأن خلافهم مع نبيهم انقلب عليهم .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد]

---

(١) أي : في يوم الجمعة . اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبي ﷺ أمر باتباع الحق ، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود . [قاله القرطبي في تفسيره ٥/٣٩٢٧] .

يؤولها بعضهم على معنى (مع ظلمهم) نقول : المعنى صحيح ، ولكن المعية لا تقتضي العلو ، فلو قلنا : مع ظلمهم فالمعنى أن المغفرة موجودة مع الظلم مجرد معية ، أما قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد]

أى : أن المغفرة علَت على الظلم ، فالظلم يتطلب العقاب ، ولكن رحمة الله ومغفرته علَتْ على أنْ تُعامل الظالم بما يستحق ، فرحمة الله سبقتْ غضبه ، ونفس الملحظ نجده في قول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

فالكبر كان يقتضى عدم الإنجاب ولكن هبة الله علت على سنة الكبَر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

فبعد أن تحدثتْ الآيات عن النموذج الإيمانى الأعلى فى الإنسان فى شخص أبى الأنبياء إبراهيم ، وجعلتْ من أعظم مناقبه أن الله أمر خاتم رسُله باتباعه ، أخذتْ فى بيان الملامح العامة لمنهج الدعوة إلى الله .

قوله : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى لا يُوجّه هذا الأمر بالدعوة إلى رسوله ﷺ إلا وهو يعلم أنه سيُنفّذ ما أُمِر به ، وسيقوم بأمر الدعوة ، ويتحمل مسئوليتها .

﴿ادْعُ﴾ : بمعنى دُلّ الناس وارشدهم .

﴿سَبِيلِ رَبِّكَ (١٢٥)﴾ [النحل]

السبيل هو الطريق والمنهج ، والحكمة : وَضْع الشيء في موضعه المناسب ، ولكن لماذا تحتاج الدعوةُ إلى الله حكمةً ؟

لأنك لا تدعو إلى منهج الله إلا مَن انحرف عن هذا المنهج ، ومَن انحرف عن منهج الله تجده ألِف المعصية وتعوَّد عليها ، فلا بُدَّ لك أنْ ترفُقَ به لتُخرجه عما ألِف وتقيمه على المنهج الصحيح ، فالشدة والعنف في دعوة مثل هذا تنفره ، لأنك تجمع عليه شدتين :

شدة الدعوة والعنف فيها ، وشدة تَرْكه لما أحبَّ وما ألفَ من أساليب الحياة ، فإذا ما سلكتَ معه مَسْلك اللِّين والرِّفق ، وأحسنت عَرْض الدعوة عليه طاوعك في أنْ يتركَ ما كان عليه من مخالفة المنهج الإلهي .

ومعلوم أن النصْح في عمومه ثقيل على النفس ، وخاصة في أمور الدين ، فإياك أن تُشعِر مَنْ تنصحه أنك أعلم منه أو أفضل منه ، إياك أن تواجهه بما فيه من النقص ، أو تحرجه أمام الآخرين ؛ لأن كل هذه التصرّفات من الداعية لا تأتي إلا بنتيجة عكسية ، فهذه الطريقة تثير حفيظته ، وربما دَعَتْه إلى المكابرة والعناد .

وهذه الطريقة في الدعوة هي المرادة من قوله تعالى :

﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥)﴾ [النحل]

ويُروى في هذا المقام - مقام الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة

الحسنة - قصة دارت بين الحسن والحسين رضى الله عنهما ، هذه القصة تجسيدٌ صادق لما ينبغي أنْ يكون عليه الداعية .

فيُروى أنهما رأيَا رجلاً لا يُحسن الوضوء ، وأرادا أنْ يُعلّماه الوضوء الصحيح دون أنْ يجرحَا مشاعَره ، فما كان منهما إلا أنهما افتعلا خصومة بينهما ، كل منهما يقول للآخر : أنت لا تُحسن أنْ تتوضأ ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أنْ يرى كلاً منهما يتوضأ ، ثم يحكم : أيهما أفضل من الآخر ، وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء ، بعدها جاء الحكْم من الرجل يقول : كل منكما أحسن ، وأنا الذى ما أحسنْتُ .

إنه الوعظ فى أعلى صورة ، والقدوة فى أحكم ما تكون .

مثال آخر للدعوة يضربه لنا الرسول ﷺ ، حينما أتاه شاب فى فَوْرة شبابه ، يشتكى عدم صَبْره عن رغبة الجنس ، وهى - كما قلنا - من أشرس الغرائز فى الإنسان .

جاء الشاب وقال : « يا رسول الله إئذن لى فى الزنا » .

هكذا تجرأ الشاب ولم يُخْفِ علّته ، هكذا لجأ إلى الطبيب ليطلب الدواء صراحة ، ومعرفة العلة أولَ خطوات الشفاء . فماذا قال رسول الله ؟

انظر إلى منهج الدعوة ، كيف يكون ، وكيف استلَّ رسول الله ﷺ الداء من نفس هذا الشاب ؟ فلم يزجره ، ولم ينهره ، ولم يُؤذه ، بل أخذه وربَّت على كتفه فى لطف ولين ، ثم قال :

« أتحبه لأمك ؟ قال : لا يا رسول الله ، جُعلْتُ فداك . قال : فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، قال : أتُحبه لأختك ؟

قال : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِداك ، قال : « فكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم » .

وهكذا حتى ذكر العمة والخالة والزوجة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على صدر الشاب ودعا له : « اللهم نَقِّ صدره ، وحَصِّن فَرْجه » فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزنى ، وهو يقول : فوالله ما هَمَّتْ نفسى بشىء من هذا ، إلا ذكَرْتُ أمى وأختى وزوجتى (١) .

فلنتأمل هذا التلطُّف فى بيان الحكم الصحيح ، فمعالجة الداءات فى المجتمع تحتاج إلى فقه ولباقة ولين وحُسْن تصرف ، إننا نرى حتى الكفرة حينما يصنعون دواءً مُراً يغلفونه بغلالة رقيقة حُلْوة المذاق ليستسيغه المريض ، ويسهل عليه تناوله . وما أشبه علاج الأبدان بعلاج القلوب فى هذه المسألة .

ويقول أهل الخبرة فى الدعوة إلى الله : النصح ثقيل فلا تُرْسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً .. والحقائق مُرّة فاستعيروا لها خفّة البيان .

وكان ﷺ إذا سمع عن شىء لا يرضيه من ذنب أو فاحشة فى مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف ، ويقول :

« ما بال أقوام قالوا كذا وكذا » (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥٦/٥ ، ٢٥٧) ، والطبرانى فى معجمه الكبير (١٩٠/٨ ، ٢١٥) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٠١) كتاب النكاح من حديث أنس رضى الله عنه أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر . فقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ، لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

ويكتفى بالتوجيه العام دون أنْ يجرحَ أحداً من الناس على حَدّ قولهم فى الأمثال : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

ومن ذلك ما كان يلجأ إليه العقلاء فى الريف حينما يتعرض أحدٌ للسرقة ، أو يضيع منه شىء ذو قيمة ، فكانوا يعلنون عن فَقْد الشىء الذى ضاع أو سُرِق ويقول : ليلة كذا بعد غياب القمر سوف نرمى التراب .

ومعنى « نرمى التراب » أن يحضر كل منهم كمية من التراب يلقيها أمام بيت صاحب هذا الشىء المفقود ، وفى الصباح يبحثون فى التراب حتى يعثروا على ما فُقد منهم ، ويصلوا إلى ضالّتهم دون أنْ يُفتضحَ الأمر ، ودون أن يُحرَج أحد ، وربما لو واجهوا السارق لأنكر وتعقدت المسألة .

وقوله سبحانه :

﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

والجدل مناقشة الحجج فى قضية من القضايا ، وعلى كُلٍّ من الطرفين أنْ يعرضَ حُجّته بالتى هى أحسن . أى : فى رفق ولين ودون تشنُّج أو غَطْرسة .

ويجب عليك فى موقف الجدال هذا ألاّ تُغضِبَ الخصْم ، فقد يتمحّك فى كلمة منك ، ويأخذها ذريعة للانصراف من هذا المجلس .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾
[النحل]

قد يتساءل البعض : ما علاقة هذا التذييل للآية بموضوع الدعوة إلى الله ؟

يريد الحق سبحانه أن يُبيِّن لنا حساسية هذه المهمة ، وانها تُبنى على الإخلاص لله فى توجيه النصيحة ، ولا ينبغى للداعية أبداً أنْ يغُشَّ فى دعوته ، فيقصد من ورائها شيئاً آخر ، وقد تقوم بموعظة وفى نفسك استكبار على الموعوظ ، أو شعور أنك أفضل منه أو أعلم منه .

ومن الناس - والعياذ بالله - مَنْ يجمع القشور عن موضوع ما ، فيظن أنه أصبح عالماً ، فيضر الناس أكثر ممّا ينفعهم .

إذن : إنْ قُبِل الغش فى شىء فإنه لا يُقبل فى مجال الدعوة إلى الله ، فإياك أنْ تغشَّ بالله فى الله ؛ لأنه سبحانه وتعالى أعلم بمَنْ يضل الناس ، ويصدهم عن سبيل الله ، وهو أعلم بالمهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

نلاحظ أن هذا المعنى ورد فى قوله تعالى :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) سبب نزول الآية : روى الدارقطنى عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد ، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه ، رأى حمزة قد شُق بطنه ، واصطُلم أنفه ، وجُدعت أذناه ، فقال : « لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثِّلنَّ مكانه بسبعين رجلاً » ، فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل] فصبر رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد . ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٩٢٨/٥) والواحدى فى « أسباب النزول » (ص١٦٢) .

وبمقارنة الآيتين نرى أنهما يقرران المثلية فى رد الاعتداء :

﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ.. (١٢٦) ﴾ [النحل]

و ﴿ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ.. (١٩٤) ﴾ [البقرة]

إذن : الحق سبحانه ، وإنْ شرع لنا الرد على الاعتداء بالمثل ، إلا أنه جعله صعباً من حيث التنفيذ ، فمَن الذى يستطيع تقدير المثلية فى الرد ، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداء ، ودون زيادة فى العقوبة ، وكان فى صعوبة تقدير المثلية إشارةٌ إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير منها ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

فقد جعل الله فى الصبر سَعة ، وجعله خيراً من رَدِّ العقوبة ، ومقاساة تقدير المثلية فيها ، فضلاً عما فى الصبر من تأليف القلوب ونَزْع الأحقاد ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

ففى ذلك دَفْع لشراسة النفس ، وسَدٌّ لمنافذ الانتقام ، وقضاء على الضغائن والأحقاد .

وقوله : ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

الخيرية هنا من وجوه :

أولاً : فى الصبر وعدم رَدِّ العقوبة بمثلها إنهاءٌ للخصومات ،

وراحة للمجتمع أن تفزعه سلسلة لا تنتهى من العداوة .

ثانياً : مَنْ ظُلِم من الخلق ، فصبر على ظلمهم ، فقد ضمن أن الله تعالى فى جواره ؛ لأن الله يغار على عبده المظلوم ، ويجعله فى معيته وحفظه ؛ لذلك قالوا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضنَّ عليه بالظلم .

والمتتبع لآيات الصبر فى القرآن الكريم يجد تشابهاً فى تذييل بعض الآيات .

يقول تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

ولا ننسى أن المتكلم هو الله ، إذن : ليس المعنى واحداً ، فلكل حرف هنا معنى ، والمواقف مختلفة ، فانظر إلى دقّة التعبير القرآنى .

ولما كانت المصائب التى تصيب الإنسان على نوعين :

النوع الأول : هناك مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن أُصيب فى صحته أو تعرَّض لجائحة فى ماله ، أو انهار بيته .. إلخ .

وفى هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذْعة الخسارة ، لكن لا ضغن فيها على أحد .

إذن : الصبر على هذه الأحداث قريب ؛ لأنه ابتلاء وقضاء وقدر ، فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى توكيد ، ويناسبه قوله تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

أما النوع الآخر : فهو المصائب التى تقع بفعل فاعل ، كالقتل مثلاً ، فإلى جانب الفَقْد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج غضبك ، ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر فى هذه أصعب وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما فى الآية الثانية :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

فاستعمل هنا لام التوكيد ؛ لأن الصبر هنا شاقّ ، والفرصة مُتَاحَة للشيطان لِيُؤلِّب القلوب ، ويثير الضغائن والأحقاد .

كما نلاحظ فى الآية الأولى قال : (وَاصْبِرْ) .

وفى الثانية قال : (صَبَر وغَفَر) لأن أمامه غريماً يدعوه لأنْ يغفر له .

ويُحكى فى قصص العرب قصة اليهودى المرابى الذى أعطى رجلاً مالاً على أنْ يردَّه فى أجل معلوم ، واشترط عليه إنْ لم يَفِ بالسداد فى الوقت المحدد يقطع رَطْلاً من لحمه ، ووافق الرجل ، وعند موعد السداد لم يستطع الرجل أداء ما عليه .

فرفع اليهودى الأمر إلى القاضى وقَصَّ عليه ما بينهما من اتفاق ، وكان القاضى صاحب فطْنة فقال : نعم العقد شريعة المتعاقدين ، وأمر له بسكين . وقال : خُذْ من لحمه رَطْلاً ، ولكن فى ضربة

واحدة ، وإنْ زاد عن الرطل أو نقص أخذناه من لحمك أنت .

ولما رأى اليهودى مشقة ما هو مُقْدِم عليه آثر السلامة وتصالح مع خصمه .

والسؤال الآن : ما علاقة[1] هذه الآية :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

بما قبلها :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ (١٢٥) ﴾ [النحل]

الدعوة إلى الله منهج يلفت الإنسان - خليفة الله فى أرضه - أنْ يلتزمَ بمنهج الله الذى استخلفه ، ووضع له هذا المنهج ليُنظِّم حركة حياته ، والداعية يواجه هؤلاء الذين يُفسدون فى الأرض ، ويحققون لأنفسهم مصالح على حساب الغير ، والذى يحقق لنفسه مصلحة على حساب غيره لا بُدَّ أن يكون له قوة وقدرة ، بها يطغى ويستعلى ويظلم .

فإذا جاء منهج الله تعالى ليعدل حركة هؤلاء ويُخرجهم مما ألفُوه ، وينزع منهم سلطان الطغيان والظلم ، ويسلبهم هذا السوط الذى يستفيدون به ، فلا بُدَّ أنْ يُجادلوه ويصادموه ويقفوا فى وجهه ، فقد جمع عليهم شدة النصح والإصلاح ، وشدة تَرْك ما ألفوه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٢٨) : « المعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالاً حسناً ، لأنها تتدرج الرتب من الذى يُدْعى ويوعظ ، إلى الذى يجادل ، إلى الذى يُجازى على فعله ، ولكن ما روى الجمهور اثبت » وذلك فى أن هذه الآية مدنية .

فعلَى الداعية ـ إذن ـ أن يتحلى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن ، فإذا ما تعدَّى أمرُهم إلى الاعتداء على الداعية ، إذا ما استشرى الفساد وغلبت شراسة الطباع ، فسوف نحتاج إلى أسلوب آخر ، حيث لم يَعُدْ يُجدى أسلوب الحكمة .

ولا بُدَّ لنا أن نقفَ الموقف الذى تقتضيه الرجولة العادية ، فضلاً عن الرجولة الإيمانية ، وأن يكون لدينا القدرة على الرد الذى شرعه لنا الحق سبحانه وتعالى ، دون أن يكون عندنا لَدَد فى الخصومة ، أو إسراف فى العقوبة .

فجاء قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وفى الآية تحذير أن يزيدَ الردّ على مثله ، وبذلك يتعلم الخصوم أنك خاضع لمنهج رباني عادل يستوى أمامه الجميع ، فهم وإن انحرفوا وأجرموا فإن العقاب بالمثل لا يتعداه ، ولعل ذلك يلفتهم إلى أن الذى أمر بذلك لم يطلق لشراسة الانتقام عنانها ، بل هدَّأها ودعاها إلى العفو والصفح ، ليكون هذا أدعى إلى هدايتهم .

وهذا التوجيه الإلهى فى تقييد العقوبة بمثلها قبل أن يتوجه إلى أمته ﷺ توجّه إليه ﷺ فى تصرُّف خاص ، لا يتعلق بمؤمن على عموم إيمانه ، ولكن بمؤمن حبيب إلى رسول الله ، وصاحب منزلة عظيمة عنده ، إنه عمه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء رضى الله عنه .

فقد مثَّل به الكفار فى أُحُد ، وشقَّتْ هند بطنه ، ولاكت كبده ،

فشقَّ الأمر على رسول الله ﷺ ، وأثَّر في نفسه ، وواجه هذا الموقف بعاطفتين : عاطفته الإيمانية ، وعاطفة الرحم والقرابة فهو عمه الذى آزره ونصره ، ووقف إلى جواره ، فقال فى انفعاله بهذه العاطفة :

« لئن أظهرنى الله عليهم لأمثِّلنَّ بثلاثين رجلاً منهم »[1] .

ولكن الحق سبحانه العادل الذى أنزل ميزان العدل والحق فى الخلق هدّأ من رَوْعه ، وعدَّل له هذه المسألة ولأمته من بعده ، فقال :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

والمتأمل للأسلوب القرآنى فى هذه الآية يلحظ فيها دعوة إلى التحنُّن على الخصم والرأفة به ، فالمتحدث هو الله سبحانه ، فكل حرف له معنى ، فلا تأخذ الكلام على إجماله ، ولكن تأمل فيه وسوف تجد من وراء الحرف مراداً وأن له مطلوباً .

لماذا قال الحق سبحانه : (وإنْ) ولم يستخدم (إذا) مثلاً ؟

إن عاقبتم : كأن المعنى : كان يحب ألاَّ تعاقبوا .

أما (إذا) فتفيد التحقيق والتأكيد ، والحق سبحانه يريد أنْ يُحنِّن القلوب ، ويضع ردَّ العقوبة بمثلها فى أضيق نطاق ، فهذه رحمة حتى مع الأعداء ، هذه الرحمة تُحبِّبهم فى الإسلام ، وتدعوهم إليه ، وبها يتحوّل هؤلاء الأعداء إلى جنود فى صفوف الدعوة إلى الله .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٩٢) وعزاه لمحمد بن إسحاق فى السيرة .

كما أن في قوله : (عَاقَبْتُمْ) دليل على أن ردَّ العقوبة يحتاج إلى قوة واستعداد ، كما قال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ.. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

كأنه يقول : كونوا دائماً على استعداد ، وفي حال قوة تُمكنكم من الردِّ إذا اعتُدِي عليكم ، كما أن في وجود القوة والاستعداد ما يردع العدو ويرهبه ، فلا يجرؤ على الاعتداء من البداية ، وبالقوة والاستعداد يُحفظ التوازن في المجتمع ، فالقوى لا يفكِّر أحد في الاعتداء عليه .

وهذا ما نراه الآن بين دول العالم في صراعها المحموم حول التسلُّح بأسلحة فاتكة .

وكلمة : ﴿ مَا عُوقِبْتُم بِهِ.. (١٢٦) ﴾ [النحل]

نلاحظ أن الردَّ على الاعتداء يُسمَّى عقوبة ، لكن الاعتداء الأول لماذا نُسميه أيضاً عقوبة ؟

قالوا : لأن هذه طريقة في التعبير تسمَّى « المشاكلة »[1] ، أي : جاءت الأفعال كلها على شاكلة واحدة .

ومن ذلك قوله تعالى :

---

(١) المشاكلة : مصطلح من مصطلحات بديع القرآن معناه : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً . [الاتقان في علوم القرآن ١/ ٢٨١]

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (٤٠) [الشورى]

لأن ردَّ السيئة لا يُسمَّى سيئة .

ولسائل فى هذه القضية أن يسأل : طالما أن الإسلام يسعى فى هذه المسألة إلى العفو ، فلماذا لم يُقرِّره من البداية ؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل ؟

نقول : لأن المجتمع لا يكون سليم التكوين إلا إذا أَمِن كل إنسان فيه على نفسه وعِرْضه وماله .. إلخ . وهذا الأمن لا يتأتَّى إلا بقوة تحفظه ، كما أن للمجتمع توازناً ، هذا التوازن فى المجتمع لا يُحفظ إلا بقوة تضمن أداء الحقوق والواجبات ، وتضمن أن تكون حركة الإنسان فى المجتمع دون ظلم له .

كما أن للحق سبحانه حكمة سامية فى تشريع العقوبة على الجرائم ، فهدف الشارع الحكيم أنْ يَحُدَّ من الجريمة ، ويمنع حدوثها ؛ فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرأ على جريمته ، ففى تشريع العقوبة رحمة بالمجتمع وحِفْظ لسلامته وأمْنه .

ونرى البعض يعترض على عقوبة الردة ، فيقول : كيف تقتلون مَن يرتد عن دينكم ؟ وأين حرية العقيدة إذن ؟

نقول : فى تشريع قتل المرتد عن الإسلام تضييق لمنافذ الدخول فى هذا الدين ، بحيث لا يدخله أحد إلا بعد اقتناع تام وعقيدة راسخة ، فإذا علم هذا الحكم من البداية فللمرء الحرية يدخل